

لكن الدكتور زكي مبارك لا يكتفى بإنكار الحياة الأولية التي تناسب إلى الجاهليين ولا بتأكيد الثقافة الأدبية الخاصة التي يعتقد أنها أتيجت لهم مع رأيه في تدوينهم ألوان أدبهم المختلفة على نحو ما رأينا ، وإنما يمضى إلى أبعد من هذا فيرى أن ذلك كله لم يكن كافياً لتذوق القرآن وفهمه ، ولا كان كافياً لانتقال الناس بالإسلام تلك النقلة الكبرى ، فما كان ذلك كله ليكون لو لم تكن هناك نهضة عربية شاملة ، يقول :

« بل لا بد أن تكون عند الجماهير التي سمعته وتأثرت به واعتنقت دينه ثقافة أدبية خاصة ، وأنا لا أفترض أن هذه الثقافة كانت كالثقافة التي ظفر بها العرب بعد الإسلام ولكنها على كل حال كانت تتناسب قليلاً أو كثيراً مع مافي القرآن من فصاحة وعمق وهذا الذي أقوله يحملنا على الشك في التقاليد التي جرى عليها الباحثون من أن العرب كانوا أميين بدرجة خطيرة ، وأنهم بذلك لم يحفظوا عن طريق الكتابة شيئاً يستحق الذكر من قصائدهم وخطبهم ورسائلهم . بل أنا أذهب أبعد من ذلك فأقرر أن الإسلام كان تاجاً لنهضة علمية وأدبية وسياسية وأخلاقية واجتماعية وفلسفية في الحدود التي كان يستطيعها